الهويـــة، وإشكالية الأنــا والآخـــر

قــراءة تحليليـــة في رواية" سهرة تنكرية للموتى" لغـادة السمَّـان*

الباحثة: فيروز زوزو

قسم الآداب واللغة العربية

كلية الآداب واللغات

جامعة محمد خيضر- بسكرة

" الأنا ليس الكائن الذي يبقى في وجوده هو عينـه بل الكائن الذي يرتكز وجوده على التماهـي، وعلى البحث عن هويتــه من خلال كل ما يحدث له. "

-فيلسوف الغيرية "امنياالليفانــس" -

الملخـــــص :

يرمي هذا المقال إلى تقصي حضور مفهوم الهوية وإشكالية الأنا والآخر في الخطاب الروائي العربي من خلال فتح مجال البحث النقدي في الأدب النسوي.

تعالج الروائيـة العربيـة" غـادة السمَّان" فـي عملهـا الإبـداعي قضـية الهويـة فـي إطـار التعدديـة الثقافية. ففي عالم منفتح على كل الهويات الثقافية هناك ضرورة تلح عدم التقوقع في قالب الأنا العربية أو اختلاق مواجهة مع الآخر الغربي لتبرير العطب الحضاري الموجود في الهوية الجمعية.

مقدمــــــة:

تقدم الرواية المكتوبة في بلاد الغربة مسائل المطابقة والاختلاف ضمن الإطار الجديد المنفتح البعيد عن أرض الوطن مما يجعل البنى الثقافيــة والاجتماعية والاقتصادية والسياسية الجديدة تتفاعل والبنية الفنية منتجة جنسًا تعبيريًا مختلفًا ثنائي الانتماء، ومتعدد الدلالة.

وبما أن العالم هو في الحقيقة: " نظام طالما أنه يقدم أدوارا و وظائف للناس و للأشياء ويقدم نفسه على أنه عالم ما بين ذوات. و مسألة التفاعل لها أهمية جوهرية "[1]. قدمت الكاتبـة العربية" غادة السمَّان" التعددية الثقافية في عملها الروائي هادفة منه الحفاظ على الهوية الذاتية (الفرديـة و الجمعيـة) مـع الانفتـاح الـواعي لاسـتيعاب الآخـر الغربـي نظـرا لاتخاذهـا قـرار

الاستقرار بمدينة " باريس " قادمة من العاصمة العربية " بيروت "، و قامت على ضوء ذلك برصد إشكالية الانتماء و الاغتراب في روايتها عن الوطن و الغربة ، ووصف معاناة الأنا المهاجرة في فضاء الآخر المختلف.

وعليه نهدف في هذا المقال من خلال تحليل رواية" سهرة تنكرية للموتى" إلى تقديم دراسة تحليلية لرواية عربية حملت مسؤولية الدفاع عن الهوية العربية لتقدم كإضافة متميزة إلى مكتبة السرد العربي المهتم بالهوية لكون هذا المفهوم انتشر استعماله في العصر الحديث بشكل لافت و ثار حوله الكثير من الجـدل. كل هذا عبر محاولة الإجابة على الأسئلة الآتية :

- إلى أي مدى نجحت الأنا في الحفاظ على هويتها في فضاء الغربة؟ .
- كيف تجاوبت الأنا المغتربة مع هويتها الجمعية في أرض الوطن، و إلى أي قدر استطاع الحوار و التلاقي الإنساني إزالة سوء التفاهم بين الأنا المهاجرة و الآخر الحميمي ؟.

1- الأنــا، الآخر، والهويــة : الرؤيــة الاصطلاحيــة

1-1- التحديد الابستيمولوجي للمفاهيــم :

بعد حديث مطول في الفلسفة ، قيل : "تعلم أنتصارع الوعي مع وعي الآخر كي يعترف به ، يؤدي إلى علاقة السيد و العبد ."[2] وهذا أدى إلى وجوب أن يتصالح أفراد المجتمع لتتأسس هوية ثقافية وطنية مشتركة تجمع بين المختلف والمطابق من عناصر الهويات الثقافية الصغرى الموجودة في فضائه المكاني قصد تكوين دعائم متينة للوعي الجمعي بعيدا عن التمركز الفكري و إقصاء المختلف . إن كل طرف يريد أن يقرر هو وضع الأطر المعرفية العامة هو مجبرا على الاعتراف بفكرة الاختلاف أولا . و الهاجس الثاني هو السؤال الذي يطرحه الإنسان العربي على نفسه نتيجة تواصله الاضطراري مع الآخر انطلاقا من كونه يعيش في عالم مفتوح:

- من أنـا ؟ .
- من هـو ؟ .

وعبر إجابة هذه الأسئلة المركزية ، تبدأ رحلة التفكير عن مفهوم" الأنا " ، " الآخر " و" الهوية " لأن التحديات تفرض مبدأ التمسك بالهوية حين يصل الاقتراب من الآخر حد التصادم و المواجهة . عند الخطر يسرع المرء إلى التقوقع حول الأنا والآخر الحميمي لذا:" لا نستطيع فصل' الأنا ' عن ' النحن' ، لأن الهوية تحقق شعورا غريزيا بالانتماء إلى الجماعة

والتمـاهي بهـا ."[3] يفسـح المجـال المعرفـي للمفـاهيم أن تقـدم أفكـارا حـول ذاتهـا لتشَّـكل أسسـها الابستيمولوجية .

– **مفهوم الأنــا:** فلسفيـا : " الوعي بالذات هو وعي بكينونة الأنا " . تم تناول المفهوم بشكل مستفيض في مجال علم النفس فالأنا هي : " الذات المدركة العاقلة الواعية لتصرفات الإنسان بوصفه جسدا أو فردا ما في مجتمع ، له دوافعه و رغباته و طلباتـــه ، و يتفاعل مع المحيط من حولـــه ، و البشر عن يمينه و شماله ، وفق متطلبات إنسانية الوجود الذي هو و هم فيه ."[4] و هذه الأنا لا معنى لوجودها إلا عبر علاقتها بالآخر .

– **مفهـوم الآخــر:** يعرف مصطلح الآخر في المعاجم بأنه هو المختلف و المغاير . يشير المفهوم في علم النفس إلى: " مجموعة من السمات و السلوكات الاجتماعية و النفسية و الفكرية التي تنسبها (ذات) – فرد أو جماعة – إلى آخرين ، لتبين أنهم غيرها ، أو أنهم لا ينتمون إليها ، عُرفا أو طبعًا ."[5] . و كمصطلح يحيل الآخر إلى الفـــرد أو الجماعـــة ، و يصنف حسب القرب أو البعد إلـــى :

– الآخر المختلف : و هو الذي تكون سمات الاختلاف عن الأنا واضحة .

– الآخر الحميمي : و هو الذي تتوافر فيه صفات المطابقة مع الأنا .

– **مفهوم الهويـــة:** إن " الهوية " مفهوم إشكالي و ذلك لصعوبة تحديد معالمه. يتفق الباحثين على أن مفهوم " الهوية " : " قد يدل على الاندراج ضمن جماعة كما يدل أحيانا على الإقصاء "[6]. وعليه ، تتحدد الهوية من خلال توصيف الأنا و الآخر في ماهيتهما الاجتماعية . هذا الأمر يعتبر ضرورة ثقافية لإمكانية الفصل بين صفات المجتمعات المختلفة .الهوية هي مجموعة مقومات جغرافية تاريخية اجتماعية أنثروبولوجية تراكمت عبر الزمن مثل : الثقافة ، الدين ، اللغة ، الأصول العرقية ، البيئة ، العادات ، التقاليد، الأعراف........إلخ .

2- نحو قراءة تحليلية لرواية " سهرة تنكرية للموتى " لغادة السمَّان :

2-1- ملخص الرواية :

رواية عن بيروت، أيضا عن بيروت، بيروت الوطن والمنفى، وكيف يصبح أحيانا الوطن منفى. الرواية تجاذبا فضائها المكاني مدينتين هما: بيروت وباريس، و لعل سبب ذلك

كون الكاتبة مقيمة بباريس ، و هو ما جعلها قادرة على رسم الشخصيات و تصويرهم بغير جهد كبير فجلهم شخصيات مغتربة في فرنسا مثلها .

بدأت أحداث الرواية في مطار باريس حيث التقت الشخصيات ببعضها البعض في كافيتيريا مطار " شارلديغول " . تجاذبت أطراف الحديث ريثما تقلع الطائرة المتأخرة بسبب الضباب . كثرت الشخصيات المنزعجة أو الخائفة من العودة إلى بيروت مثل: " فواز "ابن الثائر القديم" فايز" المرغم على الذهاب إلى مدينة قاس فيها هول الحرب الأهلية حين كان طفلا و ها هو عائد لبيع البيت العتيق الذي ورثه عن أبيه ليؤسس شركته الخاصة في باريس بعدما سئم العمل في البنك الفرنسي" . دانا "ابنة" سليمى "المرغمة هي أيضا على الذهاب إلى بيروت لمحاولة عقد صفقات مع مستثمرين لبنانين لصالح الشركة الفرنسية التي تعمل بها ، ولمرافقة أمها لقضاء الإجازة مع صديقتهما الكاتبة الشهيرة" ماريا الحراني " و الطبيبة الفرنسية " ماري روز" السعيدة برحلة السفر إلى بلاد ألف ليلة و ليلة رغم المخاوف من الآخر العربي.

تواجد بنفس الطائرة " ناجي " لبناني فشل في تجميع ثروة في الغربة ، يعمل نادلا بمطعم . قدمت الكاتبة نموذجا آخر للفشل والاحتيال هو " عبد الكريم الخوالقي " الذي كان يستغل تشابه الأسماء بينه و بين نجل رئيس وزراء قهرستان للتحايل على رجال الأعمال لدفع الرشاوي طمعا في إمكانية الحصول على المشاريع الإستراتيجية في بلده . حدَّق " وليد الموالدجي " شاب وسيم يعمل بالبورصة في "سليمى" طويلا لسبب تجهله . و أخيرا تقلع الطائرة متجهة نحو بيروت ، و تبدأ المغامرة .

يجد فواز عمته بانتظاره في المطار و يلفه جمع خفير أقارب ما زال يذكرهم و آخرون كبروا في غيابه الطويل . و تلفه القبيلة ، و يوم بعد يوم يألف دفء بيروت و حنو البيت العتيق عليه فيقرر عدم بيعه رغم إلحاح أمه من باريس و زادته حالة عشقه لسميرة الأدبية الشابة ابنة صديق والده " خليل الدرع " الرافضة لفكرة الزواج منه و العيش في باريس . الإصرار على العودة إلى بيروت الوطن و إرجاع جثمان أبيه المتوفى في الغربة و هو الذي تماطل في فعل ذلك لعدم إحساسه سابقا بجدوى ذلك .

لا لتجد " دانا " الشخصية العملية في بيروت ما يشدها إليها رغم تعرفها على الدكتور " نبيل " مثال الطيبة و العطاء لأهل قريته ، لكن محاولاتها الحثيثة على عقد صفقة مربحة مع رجل الأعمال " رامز المندال " تبوء بالفشل و يتم اغتياله أمامها فتقرر العودة إلى باريس

محبطة ترافقها أمها رغم حبها الشديد للشاب الوسيم " وليد " الذي أحبها و جددت معه شبابها و وجدت العوض عن إهمال " نعيم " أبو " دانا " و خياناته المتكررة لها.

يعاود الكاتبة " ماريا " الحنين برجوعها إلى بيتها و مكتبتها و بيروتها مدينة الحرية التي أحبتها و تركت بلدها الأصلي لأجلها و فرصة أخرى للتعايش مع أشباح قصصها و أحباء الماضي– خطيبها فادي المناضل الذي قتلوه ليلة عرسهما – . كل هذا يلهمها لكتابة رواية جديدة لكن التشوهات التي ألحقها أبناء بيروت بالمدينة الأحياء منهم و الأموات و حتى الأشباح كـ : " منير" بطل روايتها الأولى الذي صار غنيا بعدما باع المبادئ . يحاول قتلها لرفضها فكرة تخليه عن الصيادين و بيعه القضية لأول مشتري . يحدث كل هذا أثناء غيابها الطويل و هو ما جعلها لا تستطيع البقاء فتغادر راجعة إلى باريس فهي تعشق بيروت أيام العز و تكره بيروت الحاضر المشوهة رغم انتهاء الحرب ، فهي لا ما يبدو لم تنتهي بعد .

لم تدم فرحة" عبد الكريم الخوالقي " بالفندق الفخم : " فندق الأمراء " الذي ارتاده بالاحتيال و الكذب فقد كانت عيون الشرطي المتقاعد إسماعيل ابن بلده و الذي قُتل ابنه في سجون قهرستان تراقبه و تنتظر الفرصة المواتية لقتله فيموت" عبد الكريم الخوالقي " المزيف نتيجة انتحاله شخصية النجل .

يعود " ناجي " جريحا إلى قريته و مشتاقا كطفل لأمه الشخص الوحيد الذي يغفر له كل شيء حتى فشله المتواصل في الغربة لكن يجدها قد توفيت ، و يمتلئ قلبه حسرة و يأسا فيذهب إلى" سليم" رجل الأعمال ابن قريته الذي تعرف عليه في المطعم الذي يعمل به بباريس . يستغله هذا الأخير لعقد صفقات مزيَّفة و بحصوله على المال و قبل أن يسلمها إلى "سليم" يقرر الهرب إلى باريس في أول طائرة قبـــل أن يُكتشــف أمره لكنه يتعرض لحادث سيارة في إحدى شوارع باريس بعد نزوله من المطــار، و يصرخ : يا أمي ..! قبل أن يتحول إلى جثة مفحمة .

تعيش الفرنسية " ماري روز " حالات حب هستيرية مجنونة في عاصمة الشرق " بيروت " مع شخصية "وسيم " اللبناني السبعيني المتصابي ، و" يحي " الخائن لزوجته معها. و ذات يوم ، بعد انتهائها من السباحة في الشاطئ تستقل سيارة أجرة للعودة إلى بيت" دانا " لكن لظروف استثنائية يضطر السائق لأخذها معه لكون زوجته تلد و حالتها مستعصية يتوجب

معها الذهاب للمشفى ، هذه الذريعة تعقد لسان الطبيبة و تتيقن بأنها قد قدمت نفسها للبناني الوحشي كرهينة سهلة المنال . يقفز السائق من السيارة و يهرول نحو البيت أما هي فتجدها فرصة ذهبية للهرب و تركض داخل الشوارع الضيقة الفقيرة و تتعرف على الوجه الآخر للبنان. يتملكها الخوف الشديد . ثم شعرت بيد تمسكها و استدارت فوجدت السائق يلهث ويؤكد لها قلقه عليها ، حينما أحست بأن السائق لا يكذب ، خجلت من نفسها و ذلك جعلها تعرض خدماتها كطبيبة نسائية فقامت بتوليد الزوجة لخطورة وضعها الصحي و عدم إمكانية نقلها إلى المشفى. صرخت المولودة الأولى، وجاء المولود الثاني. قام السائق إكراما للطبيبة بتسمية الطفلة على اسمها. شعرت فجأة بانتفاء وحشتها كامرأة غريبة و مدى متعة مساعدة الآخرين وتقفز إلى رأسها اسم منظمة: " أطباء بلا حدود ". ستسافر حيث الملايين من الذين يعيشون حياة البؤس لمساعدتهم . تحلق الطائرة بالطبيبة "ماري روز " عائدة إلى باريس وقلبها يعتصر غما على بيروت التي تركتها مرغمة لانتهاء إجازتها.

نلتقي أيضا مع شخصيات أخرى في الرواية ثانوية لكن تقدم الكاتبة من خلالهم وجوه وأقنعة أخرى لبيروت مثل الرسام " سعيد" ابن عم والد فواز الذي أعادته صديقته " ماريا " إلى الرسم بعد طول انقطاع بسبب الحرب و الغربة . أصدقاء فايز و خليل الدرع يقصُّون لفواز ذكرياتهم مع والده في البيت العتيــق فيكون ذلك سبب إضافي ليجعله يقلع عن بيع البيت فحين يفشل المال في منح الطمأنينة يفعل ذلك الوطن بكل حب لكل قادم صادق ، و لا تكف بيروت عن رسم الدهشة ، فبرغم كل التشوهات التي يلحقها بها أبنائها تستمر في حب الحياة والرقص على أنغام الدَّبكة فوق تابوتهــا.

2-2- دلالة البنية الثقافية في رواية " سهرة تنكرية للموتى " :

2-2-1-هوية الأنــا بين الانتماء و الاغتراب :

فرضت قضية الهجرة نفسها كموضوع عالجته الرواية العربية المعاصرة انطلاقا من كونها أصبحت عنصرا هاما من العناصر المكونة للواقع الاجتماعي للفرد في أرض الغربة . حين تضطر الأنا للهجرة و البعد عن الوطن للعيش في فضاء آخر لأسباب قهرية (الحروب، الاضطهاد السياسي ،البحث عن فرصة عمل ،...الخ) فإن هذا الآخر المختلف ليس مضطرا بالضرورة لاستقباله بحفاوة ومنحه الانتماء و الأمان. هذا التجاوب السلبي يؤدي إلى زعزعة الهوية وينمي لدى الأنا الشعور بالاغتراب.

لا شك أن خطاب الهوية دلالة على وجود فرد أو جماعة تعيش الأزمة و تتحاور بلغة الاختزال ، فيصبح الاحتماء بالآخر الحميمي هو موقف دفاعي يلجأ إليه الفرد أو الجماعة. ورغم كل شيء لا تتوقف محاولات المهاجرين للذوبان في المجتمع الجديد لكن مع ذلك يبقى الوطن سؤالا يلح على الذاكرة.

تسلب الغربة بعضا من مكونات هوية الأنا المهاجرة . سجلت الكاتبة هذه الحالة عبر شخصيات الرواية حيث عانت شخصية " فايز" من حالة كآبة دائمة بسبب الحنين للوطن وغيمت البرودة على الحياة الآلية التي يعيشها: " يتحمس تارة ثم يغرق في كآبة ضجرة تارة أخرى . كأنه مات يوم غادر لبنان "[7]. و عندما توفي لم يجد حتى المساحة الكافية للعيش بسلام في القبر بعد أن فقدها في حياته الحاضرة فكان الطابور طويل للتمكن من حرق الجثة والاحتفاظ بها في جرة معقمة حتى لا تلوث جو باريس بهؤلاء المغتربين بمستودع مخصص لموتى المهاجرين فالتمييز بين الهويات موجود حتى في المقابر. " فايز" أنا مغتربة هويتها سلبت فوق التراب و تحته: " الغرباء يدفنون في قوارير زجاجية معقمة لا على التراب الذي ولدوا فوقه ."[8] كم كانت رغبة " فايز " شديدة بأن يحضنه تراب الوطن بعد الموت لكن ابنه " فواز" الطفل الذي ترعرع داخل سياج الحياة المادية الفرنسية فضَّل حرق الجثة و وضعها في قارورة زجاجية بمستودع على تكَّبد مصاريف نقلها إلى لبنان . هذا الابن الذي حاول الأبوان ربطه بهويته العربية من خلال إصرارهما على تعليمه اللغة العربية حتى لا تنقطع أواصر الفرع عن الجذور العربية الأصيلة : " اللغة وطن .. " . كم نقمت على أبي و أمي لأنهما أصرا على أن أتابع دراسة العربية في باريس قراءة و كتابة ."[9] ، و مع ذلك عاش " فواز " كباقي أبناء المهاجرين معاناة من نوع جديد و هي نظرة الرفض و الانتقاص لهويته من طرف زملائه بالمدرسة : " كدحت طوال حياتي كحمار صغير متوحد في مدارس غريبة و شوارع باردة مكهربة مع رفاق مدرسة قساة ، أتدفأ باللبنانيين المهاجرين مثلي كابن عازر اللطيف وأحتمي بهم مع صبيان بعضهم عدواني حتى الإيذاء مع الغرباء مثلي و مثل رفيقي ابن عازر الذي كانوا ينادونه ساخرين باسم ليزار بدلا من عازر، أي " سحلية " أو " حرذون " بالفرنسية! "[10].

السخرية من هويته ارتسمت حتى من أبسط عناصر الهوية الذاتية (الاسم) الذي أصبح مصدر استهزاء من طرف الأطفال الفرنسيين ، يقول : " كنت أحمد المقادير التي جعلت

والدَّي يسمياني " فواز" و هو اسم لا ينم بالفرنسية عن جنسية أو دين ، كي لا أصير هدفا للأذى."[11] .

صورت لنا الكاتبة أيضا معاناة صديق فواز " عبد الله عازر " المسيحي و الذي رغم تطابق ديانته مع ديانة الآخر الفرنسي لكن هذا لم يمنع أذاهم عنه : " كي لا أصير هدفا للأذى كصديقي عبد الله عازر ، الذي كانوا يسمونه ليزار (سحلية) بدلا من عازر ، و كان يصلي في الكنيسة كل يوم أحد ، كي تَرُّد السماء عنه أذى الذين يهتاجون لكلمة في اسمه."[12] نجد أن الكاتبة قدمت معادلا فنيا للحالة التي تنتاب" فواز " في ذاك الحيوان الصغير ذي الأشواك الكثيرة " القنفد" ، يقول: "أنا قنفد صغير يدعى فواز يخفي خوفه بإتقان كأولاد المهاجرين جميعا ، ويشهر أشواك جسده في وجه عالم يراه متوحشا سينقض عليه ."[13] وعندما اشتد عوده اتخذ العلم و العمل سلاحان للدفاع عن هويته الأضعف فحاول بذلك قهر الغربة و اتقاء نظرة الازدراء.

وبين الاقتراب المكاني و البعد الحضاري تعيش هوية أنوات أخرى حالة متأزمة مليئة بالاضطرابات النفسية و التفكك الداخلي لهوية الأنا يغذيها رفض الآخر المختلف بالرغم من حصول الشخصيات على الجنسية الفرنسية ، و لأن إحساس الانتماء لا تقدمه وثيقة رسمية بقدر ما يمنحه الشعور بالوقوف على أرض صلبة حقيقة ، فإن " ناجي " يحس على الدوام بأنه منهم و ليس منهم . لم تساعد الجنسية الفرنسية " ناجي " ليقوم بأدوار مقبولة اجتماعيا وهو ما دفعه لتبنى الهوية السالبة فيستسلم للمشاعر الشاذة (ممارسة اللواط) : " أنا أحب النساء لكنني أفضل عليهن أحيانا الجنس غير الناعم ، و أولئك لحسن الحظ لا ينجبون! ثم إنني لا أرى في الزواج الغربي أية مزايا لي كرجل شرقي."[14] إنه يفشل في أي عمل يقوم به. في الأخير، لم يجد إلا الوطن حلا لمشاكله المتتالية فقرر العودة ليحاول البدء من جديد لعل النجاح يكون حليفه : " إنني ذاهب من مهجري الفرنسي إلى وطني الأصلي لتحقيق حلمي بالثراء في لبنان بعدما فشلت في ذلك في باريس .(...) أنا من الذين يكدحون من أجل اللقمة ويخفون حقيقة فشلهم و خيبتهم عن أهلهم ومعارفهم."[15]

برزت شخصيات أخرى كـ: " دانا " لتمثل صفة السطحية في العلاقات الإنسانية وهشاشة الهوية الذاتية في فضاء الغربة لدرجة اتخاذ المصلحة سببا رئيسا لإقامة علاقة صداقة أو حب حيث تدعو صديقتها الفرنسية " ماري روز " لزيارة بيروت طمعا في أن

تدعوها هذه الأخيرة إلى زيارة موناكو لقضاء العطلة حيث بيتها الصيفي : "هذا ناهيك عن اصطحابي لماري روز كضيفة سترد لي الإجازة بدعوة إلى إجازة معها في موناكو في البيت الصيفي لوالدها البارون .(...) و هذه فرصتي للتعارف هناك مع الأمير و الأميرتين و الالتقاء بأوساط أحبها ، فأنا أحلم بالزواج من كونت أو من بارون كبعض بنات المهاجرين لأصير جزءا من صلب المجتمع الباريسي ."[16]

2-2-2- الأنــا في فضاء الهوية الجمعية :

إن الوطن يسكن الأنا سواء أسكنت فيه أو لم تسكن . و حين تسافر الأنا تحمل مع حقائبها حقيبة أخرى تسمى الجسد ، هذا الجسد الذي أهم علامة تعرف به هو جواز سفر مختوم من وطن له مكونات جغرافية و تاريخية و أنثروبولوجية خاصة به و التي تميزه عن أي وطن آخر ، مجموع هذه السمات يتلخص في مصطلح الهوية الجمعية . مقولة الجماعة تقود إلى فكرة المواطنة ، ذلك أن : " أي إنسان لا يرقى إلى مستوى إنسانيته إلا إذا توصل إلى صياغة هويته و وعى كرامته . "[17] يتأتى هذا الأمر عندما تمنح العضوية الإنسانية الدفء المطلوب.

قدمت الرواية شخصيات متنوعة تلخص علاقة الأنا بالهوية الجمعية . لقد اجتمع في فضاء الوطن أنوات عديدة منها المخلصة له و أخرى تبيعه لأول مشتري . شخصيات تريد الرحيل عنه و أخرى تعشق ترابه رغم البعد عنه . و خلف كل هذه الأقنعة التنكرية يبدأ الكرنفال الروائي في بيروت لتحدد كل شخصية مصيرها الذي تستحقه بسبب أفعالها اتجاه الوطن.

بدت " ماريا " و " فواز " أكثر شخصيات الرواية قدرة على اجتياز امتحان الهوية القومية بنجاح و المتضمن : – سؤال القيم – سؤال المعتقدات – سؤال الأهداف و سؤال الالتزام . فهم كانوا أكثر التصاقا بالوطن بوعي أو بدون وعي و أكثرها تصالحا مع الهوية الجمعية لأن كليهما غادر لبنان مرغما بسبب الحرب الأهلية.

" ماريا " الكاتبة الناجحة التي استقرت مضطرة في مدينة باريس لا تتوانى في خلق الأعذار للمجيء إلى بيروت مهبط إبداعها: " أنا المستقرة الناجحة المحسودة في باريس ، العاملة في منظمة اليونسكو و الكاتبة .أموت شوقا للعودة إلى لبنان و لو في إجازة ."[18] . نجد أن صوت " ماريا " تماهى حد المطابقة مع صوت المؤلفة لكون كليهما عاشا نفس

التجربة الحياتية ف" ماريا " كالمؤلفة هربت من جحيم الحرب اللبنانية إلى باريس رغم عشقها لمدينة بيروت ، و هي من بلد عربي آخر مثل المؤلفة و تحترف مهنة الكتابة أيضا مثل المؤلفة : " .. ثمة شيء شدني منذ البداية إلى بيروت .. إنه مذاق الحرية على أرض عربية . فيها تعلمت الكتابة في ظل الحرية و دون أن أكون مقطوعة من جذوري ، مجتَّثة من أرضي العربية . حين أزور بيروت لا أمن عليها بحضوري بل أنهل من ينابيعي الحقيقية ماء الحياة لحروفي ."[19] إن التماهي وصل حد تشابه أبطال رواياتهما (البطل " منير " في أول رواية كتبتها " ماريا " تتطابق ظروف خلقه على الورق مع شخصية " مصطفى " في أول رواية كتبتها المؤلفة " غادة السمَّان " : ' بيروت 75 ') .

أحيانا كثيرة نجد " ماريا " تستنجد بأبطالها لتضمد جروح الغربة و تسترجع هويتها الذاتية الحقيقية التي تتوه في باريس كما قد تفعل المؤلفة ربما حين تعود إلى بيتها ببيروت فتجلس قبالة مكتبتها و كتبها المرصوصة في الرفوف ، تقول : "صباح الخير يا أحبائي . خذوني إلى قلوبكم فقد جرحتني الغربة و رشت المطارات ملح الوحشة على جراحي و أنا صامتة ومتماسكة لا أنزف إلا على الورق.(...) . دوما أعود إلى هنا ، إلى مكتبتي و إلى بيروت وإلى لبنان لا لأفتش عن قلب فيه متسع لأحزاني و لا عن قصر فيه متسع لأحذيتي ونظاراتي و ثيابي الحريرية ، بل عن كهف شاسع بحجم الكرة الأرضية فيه متسع لحريتي و شموسي وأقماري ومداراتي وأبجدياتي ."[20] . إن حب بيروت تجاوز حب الكتب والجدران فوصل إلى محبة الجيران ، وهو ما يدفع " ماريا " للمقارنة بين جيرانها في بيروت وجيرانها في باريس : " عانقتها الجارة نهاد ورحبت بها وساعدتها على حمل حقيبتها وفتح بابها وألحت عليها بمرافقتها إلى العشاء عندها و النوم عندها ، و الصباح رباح.(...) أعيش منذ عقود في ذلك المبنى الباريسي ، و أتبادل التحيات في المصعد مع الجارات ، وأجهل أسماءهن حتى اليوم. يا لدفء القلب في بيروت ! "[21]

منذ اللحظة الأولى في مطار بيروت و شعور دافئ حنون يغمر " فواز " ، يقول : " حين سأله موظف الأمن بالفرنسية عن غرضه من الزيارة و هو يقلب جواز سفره الفرنسي . قال له بالعربية : اشتقت إلى بلدي.

ابتسم الموظف قائلا : أهلا بك في بلدك . هزه ذلك اللطف.

اللغة وطن .."[22]

و مع مرور الأيام و فرح " فواز " برؤية العمة و الأهل و الأصدقاء القدامى لوالده و البيت العتيق و شوارع بيروت ، بدأت الذكريات تخرج من القمع الذي دفنت فيه مرغمة لسنوات . لقد أخذ يفكر و بشكل جدِّي في القرار المصيري الذي يلح : قرار البقاء في بيروت ، بيروت الوطن ، رغم مغريات مدينة باريس و عمله الجيد في أحد البنوك . إن هذا التحول في الشخصية هو دلالة واضحة على نضج اللاشعور الاجتماعي لديها ، و وصول هوية الأنا إلى حالة الاتزان الذي بحث عنها طويلا هناك في فرنسا و لم يجدها . مارست عوامل كثيرة في اتخاذ هذا القرار أولها : اللغة الأم فاللغة وطن .. إن الهوة الكبيرة التي كانت بين الآخر الفرنسي(الهوية الأقوى التي تعد مصدرا من مصادر التعصب العرقي المؤدية إلى حالة التمركز حول الذات الفرنسية) و الأنا المغتربة (الهوية الأضعف التي يغمرها إحساس قوي بالتهميش) أوجدت حالة الانكماش و اللا استقرار و الخوف فكانت النتيجة انكسارا واضحا في الشخصية سرعان ما بدأ بالتلاشي بمجرد العودة إلى الوطن و السكن بالبيت العتيق و احتواء الأهل ثم قوي أكثر عندما ارتبط بعلاقة حب مع الأديبة الشابة " سميرة " ابنة صديق والده " خليل الدرع " و التي ترفض الرحيل عن لبنان و ترك دفء بيروت. كل هذه العلاقات الحميمية مع عالم الناس و الأشياء أيقظ حس الانتماء لدى " فواز " و الذي تشوه و خبا بريقه بسبب الغربة فتنفست الهوية الصعداء بعد سنوات عديدة مريرة من الكبت .

لم تسقط الكاتبة في الذاتية بل قدمت نماذج أخرى عن أنوات نرجسية رافضة لهويتها الجمعية راغبة في المكوث بأرض الغربة و التواصل مع الآخر المختلف بدل الآخر الحميمي، مثل " دانا " : " كم أكره هذا الضباب الذي يعرقل ذهابي إلى بيروت و يؤخر بالتالي وقت عودتي !"[23] . هذه الفتاة القادمة إلى بيروت لا حبا في بيروت بل رغبة في ابتزاز أمها لتمنحها أجرة العملية الجراحية كما وعدتها مقابل مرافقتها لها في الرحلة و كذلك محاولة التوصل إلى عقد صفقة بيع *كمبيوترات الشركة * التي تعمل بها إلى إحدى المؤسسات التجارية و إيجاد وكيل للشركة في الشرق الأوسط و العودة سريعا إلى باريس فهي لا تطيق بيروت و لا هؤلاء البشر الذين يعيشون فيها . شخصية " سليمى (أم دانا) " هي الأخرى تعبِّر تصرفاتها الطائشة على تشتت هويتها الفردية و غياب احترام الهوية الجمعية ، هوية الآخر الحميمي من خلال علاقتها الغرامية بالشاب " وليد" الذي يصغرها بسنوات عديدة.

قدمت الرواية في المقابل الرؤية المعاكسة ، حالة رفض الآخر الحميمي للأنا و تمثلت في شخصيات " ناجي " و " عبد الكريم " الذين قهرهم الوطن و امتصت دمائهم الحارة ليالي الغربة الباردة حي أصبحوا يمارسون أعمال الاحتيال ليقتاتوا في مدينة تموت فيها جوعا إن لم تملك المال . يعترف" ناجي " بأنه أخطأ حين قرر الرحيل عن الوطن و السفر إلى باريس طمعا في جمع الثروة و إسعاد أمه التي قدمت كل التضحيات لأجله ، مع ذلك لم يجد إلا الصحون لغسلها و مهنة نادل في مطعم ملاذا من الجوع ، ليعود بعد أن جلَّدته السنوات الطوال للغربة مشتاقا لأمه لأن الفشل حاصره في ديار الغربة . عاش حالة صراع مريرة بين قرار البقاء في فرنسا مع الفشل أو العودة خاوي الوفاض إلى الوطنو محاولة البدء من جديد و يقرر العودة . بعد وصوله إلى القرية يعلم بوفاة أمه : " بموت أمي وعيت كم تقدمت في السن ، فجأة تبدلت صورتي من صبي في الخامسة إلى كهل على مشارف الخمسين ... متوحدا في وكره يعيش حيلة عاطفية وهمية...هذا أنا و هذه هي الهجرة و الغربة ."[24]

أما شخصية " عبد الكريم الخوالقي " فإن مهنة الاحتيال كانت السبب في موته في أرض الوطن عندما قتله الضابط " إسماعيل " ظنا منه أنه ابن رئيس وزراء قهرستان الحقيقي.

إذا كانت النهايات قد تبدو سعيدة بالنسبة للشخصيات التي تمكنت أخيرا من تحقيق هويتها الذاتية و الوصول إلى حالة الانسجام مع الهوية الجمعية في أرض الوطن كـ: " فواز " الذي قرر التفكير في فكرة البقاء بعد أن تجدد حبه للبيت العتيق و عثر على الحب الذي لم تستطع بنات باريس أن تمنحه إياه ، فقد كانت موجعة للشخصيات التي اتخذت الاحتيال مهنة و لو حتى النصب على أبناء نفس الجلدة فهي لم تعد إلى الوطن بدافع الحب أو استعادة الإحساس بالهوية الجمعية . لذا نجد أن جنون بيروت لم يرحم " ناجي " الذي لقي حتفه في حادث سيارة ، و شخصية " عبد الكريم الخوالقي" المنتحل شخصية ابن رئيس وزراء دولة قهرستان لتشابه الملامح و الأسماء ، المفتخر بهذه الهوية المزيفة للقيام بأعمال النصب و كسب المال لاعتقاده بأنه الوسيلة الوحيدة للحصول على السعادة فيموت في عملية اغتيال بسبب هذه الخدعة.

خاتمـــــــــة:

عايشت الكاتبة عبر مغامرتها الروائية في الغربة هموم الأنا العربية فقدمت هذه الذات المنشطرة بين حس الانتماء للوطن و إحساس الاغتراب الطاغي في ديار الغربة. كما عالجت قضية الهوية فكتبت عن قصة مدينتين: بيروت و باريس.

إن نضج الوعي النقدي لدى الكاتبة العربية " غادة السمَّان " جعل من نصها الإبداعي يقوم بالدعاية للهوية الجمعية المدافعة عن الحرية و الحاضنة لكل أبنائها المنتمين لها . لقد بينت النصوص الروائية المكتوبة في الغربة أنه مهما رحلت الأنا عن الوطن سيبقى هذا الأخير تاركا بصماته المتمثلة في الصفات الاجتماعية للأنا و التي تحملها معها أينما كانت.

إن مما شك فيه أن المعايشة السلمية للأنا مع الآخر العربي أو الغربي يفسح المجال لتعدد الرؤى و خلق فضاءات منفتحة بعيدة عن التعصب ، و كل هذا هو إضافة حقيقية للهوية الوطنية و العالمية بعيدا عن الهيمنة و الإقصاء.

الهوامـــــــــش

---

* **غادة السمَّان** : أديبة سورية من مواليد 1942 بمدينة دمشق ، عاشت في أوربا لفترة ثم عادت إلى بيروت في نهاية فترة الستينيات حيث كانت تعمل في مجال الصحافة . صدر لها 06 مجموعات قصصية ، 08 مجموعات شعرية ، 05 روايات ، و سلسلة أسمتها : الأعمال غير الكاملة ضمت 15 كتابا ، و05 كتب في أدب الرحلات. ترجمت بعض أعمالها إلى 13 لغة عالمية . تقيم حاليا بباريس .

1- ألبرتو إزو ، الهوية و تعدد عوالم الحياة ، تر: مراد وهبة ، مجلة فصول ، العدد المزدوج: 88/87، خريف 2013 – شتاء 2014 ، القاهرة ، مصر ، الصفحة : 58 .

2- سعاد حرب ، الأنا و الآخر و الجماعة – دراسة في فلسفة سارتر و مسرحه – ، دار المنتخب العربي للدراسات و النشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، ط1، 1994، الصفحة : 09.

3- ماجدة حمود ، إشكالية الأنا الآخر ،المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ط1، 2013، الصفحة : 15.

4- عبد الله بن محمد طاهر تريسي ، ثنائية الأنا و الآخر (الصعاليك و المجتمع الجاهلي)، مجلة التراث العربي ،العدد المزدوج: 121/120، دمشق، سوريا، جانفي / أبريل، 2011، الصفحة: 170.

5- المرجع نفسه، الصفحة: 173.

6- مجموعة باحثين، مفاهيم عالمية / الهوية ، تر: عبد القادر قنيني ، المركز الثقافي العربي، المغرب، لبنان، الصفحة : 18.

7- غادة السمان، سهرة تنكرية للموتى، منشورات غادة السمَّان، بيروت، لبنان، ط2، 2005، الصفحة: 15

8- المصدر نفسه، الصفحة: 39.

9- المصدر نفسه، الصفحة: 37.

10- المصدر نفسه، الصفحة: 16.

11- المصدر نفسه، الصفحة: 38.

12- المصدر نفسه، الصفحة: 38.

13- المصدر نفسه، الصفحة: 08.

14- المصدر نفسه، الصفحة: 18.

15- المصدر نفسه، الصفحة: 18.

16- المصدر نفسه، الصفحة: 12.

17- محمد نور الدين أفاييه، المتخيل والتواصل- مفارقات العرب والغرب-، دار المنتخب العربي للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1993، الصفحة: 124.

18- غادة السمان، سهرة تنكرية للموتى، الصفحة: 11.

19- المصدر نفسه، الصفحة: 11.

20- المصدر نفسه، الصفحة: 66،65.

21- المصدر نفسه، الصفحة: 49.

22- المصدر نفسه، الصفحة: 36.

23- المصدر نفسه، الصفحة: 12.

24- المصدر نفسه، الصفحة: 95.